فوكو مفكر الحداثة

بقلم لالومون Lalemon

ترجمة: حسن أحجيج

من الصعب تصنيف أعمال ميشيل فوكو في إحدى الخانات التي اعتدنا عليها: هل كان يقوم بعمل المؤرخ أم عالم الاجتماع أم عالم النفس...أم أنه كان يقوم بكل تلك الأعمال في آن واحد؟ كان فوكو يرفض أن نلصق به أية واحدة من هذه العلامات التقليدية حتى وإن كان يسبر غور بعض المضامين التي كان المؤرخون يحتكرونها عادة. فالسبيل الذي ينزع فوكو إلى اتباعه يتمثل في القيام بإعادة قراءة جذرية للممارسات والخطابات، وعلى خلاف تاريخ الذهنيات، تتم إعادة القراءة هذه من خلال التشديد على القطيعات والانقطاعات الكبرى التي فعّلت الممارسة والمعرفة البشريتين.

وخلافا لما توحي به بعض التأويلات، لا يشكل عمل فوكو كلاًّ متجانسا توحد بين أجزائه إشكالية موحدة وثابتة. إذ تقدم أعمال فوكو عديدا من الواجهات وتتصدى لموضوعات متنوعة جدا (كالحمق والثقافة الأوروبية والسياسة والجنس، الخ) وحقب سحيقة (من العصر القديم إلى القرن التاسع عشر). فضلا عن ذلك، حظيت بعض المجالات الخاصة بعمل استكشافي عميق: مسألة الآخر، خصوصا في كتابه تاريخ الحمق في العصر الكلاسيكي؛ والابستمولوجيا، خاصة في كتابيه الكلمات والأشياء وحفريات المعرفة؛ والسياسة في كتابيه المراقبة والعقاب وإرادة المعرفة؛ وأخيرا الأخلاق في مؤلف تاريخ الجنس.

ليس التاريخ نهرا كبيرا هادئا:

يتمثل أحد الخيوط الدالة في أعمال فوكو في السؤالين التاليين: كيف يمكن أن تتكوّن معرفة معينة في حقبة ومكان معينين؟ وما هي العلاقات التي تقيمها المعرفة والحقيقة والتاريخ فيما بينها؟

تتعارض إجابات فوكو أولا مع الإجابات التي تقدمها الأسطوغرافيا التقليدية التي ترى التاريخ كانسياب خطي وتراكمي للأحداث. فهو على خلاف ذلك يرى أن "القوى التي تفعل في التاريخ لا تخضع لأية غاية ولا لأية حركة ميكانيكية، إنما لصدفة الصراعات". تعني هذه الأطروحة أن الأسس الثقافية التي يقوم عليها مجتمع ما ليست محصلة أبدية للمعارف وطرق التفكير، بل هناك قطيعات جذرية في تاريخ الأفكار. وبصيغة أخرى، فإن المواضيع التي نريد معرفتها والمعارف التي نستخلصها من دراستها تبقى نسبية. بمعنى أنه لا وجود لحقيقة تتعالى على مختلف أحقاب تاريخنا.

الإطارات الفكرية التي تشكل قاعدة الخطابات حول épistémé يقصد فوكو بالإبستيمي المعرفة لدى جماعة بشرية في حقبة معطاة. ينطلق فوكو في الكلمات والأشياء من العصر الوسيط ليحدد معالم ثلاثة أحقاب كبرى في تاريخ الفكر الغربي. تتمثل الحقبة الأولى في عصر النهضة، حيث كانت المعرفة في القرن السادس عشر، وخصوصا المعرفة العلمية، تقوم على مفهوم التشابه. فقد كان علم تلك الحقبة يرتكز على توضيح معنى العلامات المدونة على الأشياء، وبالتالي يمكّن من العثور ثانية على آثار الخلق الإلهي. كان علماء تلك الفترة يعتقدون مثلا أنه ما دامت الجوزة تشبه الرأس فمن المفروض أن تعالج آلام غلاف الجمجمة، ومن المفروض أيضا أن تعالج نواتها آلام الرأس الداخلية. ثم جاء العصر الكلاسيكي (القرنان السابع عشر والثامن عشر) ليمثل اللحظة التي سيتحقق فيها أول انقلاب في النظام المعرفي، حيث ظهرت علاقة جديدة بين الكلمات والأشياء. إذ اصبح الناس منذئذ يميزون بين العلامة والشيء الذي تمثله. وبعبارة أخرى، أصبح المفكرون يفصلون الدال عن المدلول. فدشن العصر الكلاسيكي بذلك نمطا جديدا من التمثل: حيث أنجزت مجموعة من الخرائط واللوحات انطلاقا من علوم الحساب قصد الإحاطة بالعالم المحيط. وفضلا عن ذاك، أضحى أول أعظم LINNE الفكر الكلاسيكي يقوم على النظام والتصنيف. ففي هذه الحقبة، أنجز ليني تصنيف للحيوانات والنباتات.

وانبثقت في مطلع القرن العشرين قاعدة ابستمولوجية جديدة: إذ حل الإنسان كموضوع معرفي جديد محل الخطاب الذي كان يمثل موضوع علوم العصر الكلاسيكي. فالإنسان الذي كان العلم السابق يجهله ككيان نشيط وحي ومتكلم أصبح يتصدر مواضيع المعرفة الجديدة. وبذلك حلت الفيلولوجيا محل النحو العام، والاقتصاد السياسي محل تحليل الثروات، والبيولوجيا البشرية محل التاريخ الطبيعي. وفي هذه الفترة أيضا احتد إيقاع التغير الاجتماعي، وظهر تبعا لذلك مدلول التطور (في دراسة الكائنات الحية) ومدلول التاريخ (في تحليل المجتمعات البشرية). واستخلص فوكو نتيجة أساسية من هذه الحركة الفكرية: وهي أن العلوم الإنسانية تطابق لحظة معينة من تاريخ معرفتنا،

ومن الممكن جدا أن يمّحي الإنسان كموضوع للمعرفة "كما يمحو الماء صورة مرسومة على رمل شاطئ البحر".

التنقيب على أسس المعرفة:

ينتج عن هذه المقاربة الابستمولوجية نتيجة ومطلب منهجيان. إن النتيجة ثقيلة جدا: وهي أن كل شكل من اشكال المعرفة يتسم بالنسبية. ويدعم فوكو الفكرة القائلة إن أنماط التفكير في حقبة معينة -بما فيها الأنماط العلمية- غير خالدة ومحكوم عليها بالتلف لتحل محلها أنماط أخرى. ويستخلص فوكو من ذلك المطلب المنهجي التالي: يتعين علينا أن نقوم بتاريخ للفكر يرتكز على الجنيالوجيا والحفريات.

تعود الجنيالوجيا التي ينادي بها فوكو إلى المنهج الذي مارسه نيتشه في كتابه جنيالوجيا الأخلاق. تنطلق كل دراسة جنيالوجية من رفض البحث عن الأصول، لذلك فهي تقوم على إرادة التنقيب الدقيق عن التحولات والانتقالات التي تمس باستمرار قيمنا وسلوكاتنا وأنساق تفكيرنا. فالجينيالوجيا لا ترتوي من الميتافيزيقا، وإنما من التاريخ، إذ "يتعين عليها أن تعرض الجسد وهو موشوم بالتاريخ، وأن تعرض التاريخ وهو يتلف الجسد".

يماثل فوكو في المقام الثاني بين عمل التنقيب في الأرض وحفريات المعرفة التي يشير بها إلى سيرورة تفكيك الخطاب الذي أنتجته حقبة معينة بطرق مختلفة (بواسطة النصوص العلمية أو الكتيبات أو الضوابط أو القوانين، الخ). لا تهدف الحفريات إلى تأويل هذا الخطاب أو ذاك، بل إلى وصف شروط ظهوره ووظيفته. إذ يتشبث فوكو في ولادة العيادة مثلا بتحديد السياق الذي ظهرت فيه اللغة الطبية الحديثة انطلاقا من نهاية القرن الثامن عشر. فهو يرى أن القطيعة ترتبط بأعمال بيشا Bichat التي نقلت التجربة العيادية إلى التجربة التشريحية. لم تكن الملاحظة قبل بيشا تجري إلا على الحي؛ وأصبح العلماء بعده يسائلون الجثة قصد بلوغ فهم أفضل للحياة. ويستنتج فوكو أن الطب الحديث ظهر انطلاقا من سلب جذري (الموت). هكذا يمارس فوكو هذه المنهجية الجنيالوجية والحفرية في كل أعماله.

العقل كجهاز للضبط:

بمجرد ما بدأ فوكو في كتابة مؤلفه تاريخ الحمق في العصر الكلاسيكي، سارع إلى امتحان الترسيمة الجينيالوجية التي ورثها عن نيشته. لقد كرس كل جهوده بالفعل للبرهنة على أن الحمق لم يكن محط تفكير قبل القرن السابع عشر نظرا لأنه كان مندمجا كليا في حياة الناس. كان مفكرو العصر الوسيط يتصورون الحمق "مزايدة شيطانية على صنعة الله"، مما كان يمنحه وضعية إيجابية وواقعية لأنه يحمل معرفة تنحدر مما وراء الوجود الإلهي. وظهر في عصر النهضة خط فاصل بين مختلف التأويلات التي يخضع لها الحمق. فمن جهة، ظل الحمق لغزا يزود الإنسان ببعض مفاتيح المعرفة والإلهام. لكنه بدأ من جهة أخرى يبتعد شيئا فشيئا عن العقل، كما يوضح ذلك الثناء على حمق إراسم Erasme. وبذلك تصدعت معرفة الحمق حتى وإن لم يكن قد انتهى بعد الحوار الجاري بين القطبين.

لم يصبح الحمق نقيض العقل بصورة قطيعة إلا في العصر الكلاسيكي (من منتصف القرن السابع عشر إلى بداية القرن التاسع عشر). ذلك أن "العدوان العقلي" الذي تعرض له العصر الكلاسيكي وجد تعبيرا له في الفصل الواضح بين العقل واللاعقل. وترجم ديكارت هذا الفصل في التأمل الأول بلغة مقتضبة: "لكن ماذا، إنهم مجانين". وبعد أن عرض فوكو هذا التأويل المتين (الذي سيخضعه جاك ديريدا Derrida لنقاش ضار(1))، كرس جهوده كلها لمنازعة هذه النزعة العقلية، موضحا إلى أي حدٍّ يبقى الفصل بين العقل والحمق عملا اتفاقيا بما هو نتاج خالص لعصره؛ ومن ثمة فإن عقل عصر الأنوار ليس عقلا كونيا.

وخلافا لما تروّج له فلسفة الأنوار، يعتقد فوكو أن النزعة العقلية عامل معاناة وعبودية. فهي تقوم على مبدأ السلب (الحمق بمثابة لا عقل)، وتولّد الإقصاء والحجز باسم العقل. لقد فصل الأحمق فعلا عن باقي المهمشين في النصف الثاني من القرن السابع عشر، وأصبح يحتجز في مكان خاص: مستشفى المجانين. هكذا أصبح الأحمق يخضع للقمع الجسدي والأخلاقي وللصِّبيَنَة، وحكم عليه بالتالي بأن يسجن فيما أصبح الناس يعتبرونه مرضا، هذا المرض الذي خلق الأسس التي سيقوم عليها خطاب جديد هو خطاب الطب العقلي.

فلم يعد صوته يرن في آذان الجميع منذ ذلك الوقت.

عصر الاحتجاز الكبير:

أدت الطفرة الفكرية التي حدثت في العصر الكلاسيكي إلى ظهور "الاحتجاز الكبير" للحمقى والعاطلين والمتسولين والمشردين والمجان والمصابين بداء الزهري والزنادقة وآخرين من الشواذ جنسيا. لقد مكن بناء المستشفى الكبير سنة 1656 من مراقبة الفقراء الذين لم يعد المجتمع يرى

فيهم صورة الله على الأرض، بل عامل فوضى. ويستجيب هذا الاحتجاز لعوامل سياسية واقتصادية: ففي فترات الأزمة، يتم حشد العاطلين والمشردين في الإصلاحيات، وفي فترات الرخاء، يقوم الاحتجاز بوظيفة أخرى هي توفير اليد العاملة الرخيصة.

ليست استراتيجية الاحتجاز هذه سوى بداية لما يسميه فوكو المجتمع التأديبي. إذ دشن العصر الكلاسيكي فعلا تلك اللحظة التاريخية التي تطور فيها عمل التأديب بهدف تأطير الجسم الاجتماعي وتدريبه بطريقة ميكروفيزيائية. لقد عبر العدوان العقلي عن نفسه بنمط جديد من المراقبة يكتسب شكل ترويض وإعادة ترويض دائم للأفراد.

وعبر هذا العدوان عن نفسه بصورة ملموسة في الظهور المتزايد للمؤسسات (الأوراش والمصانع والمستشفيات والثكنات والمدارس والسجون) التي تروض الأفراد قصد أن تجعل منهم بشرا "مطيعين ونافعين". ذلك أن المجتمع بذل كل ما في وسعه لترويض الأفراد بواسطة الضوابط والقوانين والكتيبات، وكذا لتنقيطهم وترتيبهم وإقحام نوع من المراقبة المتبادلة في قلب الجماعات البشرية الصغرى.

من فن القيادة إلى فن الإنقياد:

عرف فكر فوكو انعطافا واضحا انطلاقا من سنة 1976، حيث انتقل تدريجيا من موضوع السلطة والهيمنة إلى تحليل الحكم (الذي يعتبره قيادة للآخرين والذات في آن واحد). فالآراء التي ضمنها كتابه تاريخ الجنس تبتعد كثيرا عن عمليات الوصف الدقيقة لإجراءات الاحتجاز والإقصاء التي حوتها أعماله السابقة. إذ لم يعد الأمر يتعلق بتحليل ضوابط السلوكات وقواعدها كإكراهات مفروضة على الناس، بل أصبح يتعلق بتحليل الطريقة التي يتبنى بها الأفراد الأحرار قواعد سلوكية تبعا لفن معين في الحياة. إن المسألة التي تشغل بال فوكو هي الإجابة على السؤالين التاليين: لماذا وكيف انتقل المجتمع الغربي من حقيقة حول الجنس، ناتجة فقط عن "فن إيروسي" (تجربة لذة لا يربطها رابط بالمنفعة أو بالقاعدة المطلقة للمباح، كما كان عليه الشأن في الصين أو اليابان أو الهند، الخ)، إلى معرفة حول الجنس ("علم جنسي")؟ ولماذا أصبحت المسألة الجنسية بالغرب أحد المفاتيح التي تشرع باب معرفة الهوية المغربية؟

وخلافا لما يوحي به التصور الاختزالي للمجتمعات البورجوازية، لم يكن الأمر في القرن السابع عشر يتعلق بخنق قمعي لكل كلام حول الجنس، بل كان يتعلق بانسياب سيل من الخطابات حول الذات. يلاحظ فوكو في هذا السياق أن "الحياة الرعوية المسيحية وضعت كواجب أساسي مهمة إقحام كل ما يتعلق بالجنس في طاحونة الكلام التي لا تتوقف"(2) فالسلطة لا تهاب الجنس، بل تعرف على العكس كيف تستخدمه كنمط حياة:إن المجتمعات المسيحية تنظم "عملية صياغة الجنس في خطاب" انطلاقا من المساراة والبوح والاعتراف الكنسي، وتتمكن بذلك من تسيير نوع من المعرفة وتنظيم نوع من السلطة اللتين ستشكلان أساس عملية تأطير كل أشكال الوعي والسلوكات الفردية. هكذا، وانطلاقا من عام 1984 الذي ظهر فيه كل من استعمال اللذات و الانشغال بالذات، تخلى فوكو عن دراسة الإنسان كموضوع سلطة ومعرفة ليتحول إلى تحليل الإنسان الذي يتعرف على نفسه كموضوع لذة. ويجري هذا التحليل في العصر اليوناني والروماني القديم. يوضح فوكو من خلال هذه الحالة كون الممنوع ليس هو المدخل الحاسم لفهم انبثاق علم الجنس: إذ كان موضوع العلاقات الجنسية الحرة والمقبولة من طرف الجميع (حب الغلمان) في العصر القديم محط الأسئلة ومجمل التأملات الأخلاقية، حيث كانت الحياة الجنسية والأخلاق ترتبط فيما بينها ارتباطا وثيقا.

لم تكن الرغبات واللذات في العصر القديم تنفصل عن نوع من المنظومة الأخلاقية ونوع من علم جمال الوجود. يعبر هذا الاهتمام الأخلاقي عن نفسه في تماسك النفس والاعتدال والاستقلال الفردي بغية الوصول إلى السيطرة على الذات. ويقتضي ذلك من الفرد في مجال الحياة الجنسية أن يتصرف كإنسان فاضل وحر ومخلص لنوع من فن الحياة. هكذا يتوضح لنا أن العصر القديم لم يكن يميز ما إذا كانت الرغبة رغبة في رجل أو امرأة: فالرغبة في مراهق شاب وسيم كانت تعتبر رغبة عادية ومشروعة. ذلك أن إضفاء الطابع الإشكالي على المسألة الجنسية كان يتم بالإحالة إلى البناء الذاتي والمتوازن للذات وللمارسة الحرة.

فوكو، مفكر الحداثة:

لنقل بإيجاز إن أعمال فوكو تكشف عن اهتمام مزدوج: يتعلق الأمر أولا به بالكشف عن الحقيقة التي تم استثمارها في لحظة معينة في خطابات (حول الحمق أو الطب أو السجن أو الجنس). لذلك يرسم فوكو حدود العقل ويحدد سمته النسبية. وينصب الاهتمام الثاني لفوكو على تشريح الحداثة الغربية. ذلك أن فوكو عندما يعيد صياغة مسألة السلطة، فإنه يزعزع اليقينيات القائمة منذ عصر الأنوار ويوضح جليا ضرورة النبش في عمق المجتمع المغربي "ذي النزعة التأديبية".

تتقاطع أعمال فوكو مع التقليد النقدي الألماني (من ماكس فيبر إلى يورغن هابرماس) الذي

لم يفتأ يتساءل عن هذا المظهر المركزي الذي تحمله السيرورة الحضارية الخاصة بالغرب: العدوان العقلي وتأديب الأفراد.

وإذا كان هذا الاهتمام المزدوج يتسم بالاستمرارية، فأعمال فوكو ليست قرارا نهائيا لمعلم يجب علينا التفكير فيه. فعندما يطرح فوكو أسئلة عديدة دون أن يجيب عليها، فإنه يفتح آفاقا جديدة للتساؤل ويقترح مفاهيم وأدوات بحث جديدة. ولا تطالب هذه الأدوات إلا باختبارها في الحقول المتنوعة للعلوم الإنسانية كما كان يتمنى ذلك فوكو نفسه.

هوامش:

1 - جاك ديريدا، "الكوجيتو و تاريخ الحمق"، الكتابة والاختلاف، Seuil، 1979.

2 - ميشيل فوكو، إرادة المعرفة، غاليمار، 1976، ص 30.

ميشيل فوكو ..

مؤلفة هذا الكتاب هي الباحثة الفرنسية بلاندين كريجيل وهي استاذة جامعية وفيلسوفة معروفة في فرنسا. وتشغل اليوم منصب رئيسة المجلس الأعلى لدمج الاجانب في المجتمع الفرنسي. وكانت قد نشرت سابقاً عدة كتب مهمة نذكر من بينها: فلسفة الجمهورية (1998)، الدم، العدالة، السياسة (1999)، تأملات حول العدالة (2001). وفي هذا الكتاب الجديد تتحدث المؤلفة عن اشهر فيلسوف فرنسي في القرن العشرين بعد سارتر: ميشيل فوكو.

-

ومنذ البداية تقول المؤلفة بما معناه: لقد مات ميشيل فوكو عام 1984 ولكن فكره لم يمت معه. على العكس فانه لا يزال يثير المناقشات الحامية ويغذي التأمل الفلسفي وقد عاداه البعض وحاولوا دفنه كفكر بحجة انه كان مراهقاً من الناحية السياسية، بل ومتطرفا فوضوياً، لا مسؤولاً.والبعض الآخر دعا الى نسيانه بكل بساطة باعتبار ان زمنه قد مضى وانقضى ولم يعد فكره يناسب عصرنا. ثم تردف المؤلفة قائلة:

-

ولكن على الرغم من كل هذه الانتقادات فان تأثيره امتد لكي يشمل كلتا ضفتي المحيط الاطلسي: اي في اميركا واوروبا فانتشاره واسع في الجامعات الاميركية والكثيرون هناك يعتبرون ان فكره يمثل الفلسفة الفرنسية بالفعل.

-

وترى المؤلفة ان فوكو جسد روح عصره من الناحية الفكرية والفلسفية. وهناك اشياء سقطت من اعماله واشياء لا تزال سارية، المفعول حتى الآن. وبما ان السيدة بلاندين كريجيل كانت مساعدة لفوكو في الكوليج دوفرانس واشتغلت معه لفترة من الزمن فانها أعلم الناس به وتعرف عما تتحدث بالضبط.

-

من أهم فصول الكتاب فصلان: الاول يتحدث عن فوكو كفيلسوف، والثاني يتحدث عنه كمفكر سياسي منخرط في الممارسة العملية والنضال. فيما يخص الجانب الاول ترى المؤلفة ان فوكو سيطر على كل فلاسفة عصره بفضل قوة فكره وقدرته على الاقناع وجمال اسلوبه.

-

والواقع ان فوكو لم يكن فقط فيلسوفاً، وانما كان ايضا اديبا شاعراً من الطراز الاول. ويكفي ان يقرأ المرء كتابه عن تاريخ الجنون، او كتاب الكلمات والاشياء لكي يتأكد من ذلك.

-

فهو ذو اسلوب نيتشوي بركاني، متفجر. ولذلك يعتبرونه احد كبار الكتاب في اللغة الفرنسية ليس فقط فيلسوفاً او مفكراً كبيرا.

-

ومن أهم سمات فوكو هي انه جمع بين تيارين متناقضين في الفكر: التيار النيتشوي الرومانطيقي، والتيار المنطقي العقلاني لقد جمع بين نيتشه من جهة، وباشلار واليكسندر توليري وكبار علماء المنطق من جهة اخرى، بمعنى آخر لقد جمع بين الحار والبارد، او بين الماء والنار. وهذا شيء قل ان يتوصل اليه مفكر.

-

ثم هناك ميزة اخرى له: وهي انه كان ذا ثقافة ادبية وفنية واسعة، وفي ذات الوقت ذا ثقافة علمية وابستمولوجية واسعة، ايضا، وبالتالي فقد استفاد من العلوم الطبيعية او الفيزيائية وطبق منهجيتها على العلوم الانسانية.

-

وهذا ما فعله كبار الفلاسفة من قبله من أمثال أوغست كونت صاحب الفلسفة الوضعية، ولا ينبغي ان ننسى ان فوكو كان ابن طبيب مشهور في مدينة بواتييه وبالتالي فعلاقته بعلم الطب والتشريح وثيقة، وفي ذات الوقت كان من أكبر المعجبين برامبو، ومالارميه، وانطونين آرثو، وسواهم.

-

ثم تضيف المؤلفة قائلة:

-

ولكن المنطق الاساسي لفلسفة فوكو يكمن في مكان آخر، انه يعود الى تقنية شخصية بحتة، ينبغي العلم بأن فوكو كان شاذا من الناحية الجنسية، هذه المسألة اثرت عليه كثيرا منذ شبابه الاول، وقد عانى الأمرين بسبب هذه العاهة التي لا يستطيع منها فكاكا.

-

ولهذا السبب فإن كل فلسفة ما هي إلا دفاع عن المنبوذين في المجتمع : سواء كانوا مجانين، ام مساجين، ام فقراء مهمشين، ام شاذين، ام منبوذين لسبب أو لآخر.

-

والميزة الاساسية لفلسفته هو انه عكس التطور الفكري السابق عليه، فمعظم الفلاسفة كانوا ينظرون الى الامور من زاوية العقل والمركز اما هو فراح ينظر اليها من زاوية الجنون والهامش او الهامشية، وهكذا اكتشف اشياء جديدة لم يرها الآخرون من قبله، لقد نظر الى الاشياء من بابها الآخر.

-

يضاف الى ذلك ان الرجل عانى من مرض نفسي رهيب في شبابه الاول بسبب شذوذه، وعرض نفسه على اطباء عديدين لكي يشفوه، بل ووصل به الامر الى حد انهم سجنوه فترة في احدى المصحات العقلية، ولذلك اهتم بظاهرة الجنون فيما بعد وكرس لها أطروحته الجامعية الكبيرة، وليس عبثا انه فهم مشكلة الجنون اكثر من غيره.

-

وعندما توصل الى اكتشافه الكبير عن الحدود الفاصلة بين الجنون والعقل استطاع ان يشفى من جنونه، وهذا ما عبر عنه صديقه التوسير عنه ما قال: انا وميشيل فوكو كنا نمشي على حافة الهاوية، اما هو فقد نجا واما انا فقد سقطت فيها!

-

ومعلوم ان التوسير انتهى به الامر الى خنق زوجته والسقوط في الجنون الكامل وفقدان العقل.

-

وبالتالي فكل فكر ميشيل فوكو ناتج عن تجربة شخصية حادة، تجربة كادت ان تودي به.

-

ولكنه بعد ان استطاع تجاوزها اصبح اقوى رجل في عصره، واكبر فيلسوف في جيله، فالانسان الذي ينتصر على نفسه يستطيع ان ينتصر على كل شيء.

-

هنا تكمن عظمة ميشيل فوكو، فمن شخص مهزوز، معقد، مريض نفسيا، استطاع ان يصبح كاتبا ومفكرا عبقريا واستاذا في كبريات الجامعات الفرنسية والعالمية، وهذا ليس بالشيء القليل.

-

ثم تطرح المؤلفة السؤال التالي: ما هي النظرية المعرفية الجديدة التي أتى بها ميشيل فوكو؟ بحسب رأيها فإنها تجلت بشكل واضح في كتابه الشهير: الكلمات والاشياء، ففيه اكتشف ان كل عصر له خصائصه العلمية وممارساته السلطوية، وانه يستخدم الاولى لخلع المشروعية على الثانية،

-

وبالتالي فلا توجد حقيقة مطلقة صالحة لكل العصور، ويرى فوكو ان العصور الحديثة تستخدم العلوم الانسانية لخلع المشروعية على سلطة التدجين والقمع السائدة فيها، وبالتالي فهناك تواطؤ بين مختلف اجهزة المجتمع ومؤسساته: كمؤسسة البصمات العقلية، ومؤسسة السجن، ومؤسسة الثكنة العسكرية، ومؤسسة المدرسة، ومؤسسة المشغل الحرفي او المصانع، وحتى مؤسسة البوليس والمخابرات.

-

في الماضي كان الكاهن المسيحي هو الذي يخلع المشروعية على السلطة السياسية، اما في مجتمعات الحداثة التي تشكلت بعد الثورة الفرنسية فقد اصبحت العلوم الانسانية هي التي تخلع المشروعية على مؤسسات السلطة.

-

بمعنى اخر فإن علم النفس، والتحليل النفسي، وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، وعلم اللغة او الألسنيات وعلم الانثربولوجيا هي التي اصبحت المعرفة، الحقيقية وحلت محل اللاهوت المسيحي القديم، فعندما يستشعر الفرنسي المعاصر بمشكلة مع ضميره او عقدة نفسية لم يعد يذهب إلى عند الكاهن لكي يجلس على كرسي الاعتراف ويعترف له بكل ما فعله، وإنما أصبح يذهب إلى عند المحلل النفساني، وهنا يكمن الفرق بين المجتمعات التقليدية، ومجتمعات الحداثة.

-

كل هذه الأشياء درسها فوكو ووضحها بشكل جيد. ثم كشف عن الملابسات السلطوية لكل أنواع المعرفة السائدة. فالمعرفة لا توجد في جهة، والسلطة في جهة أخرى. وإنما المعرفة هي بحد ذاتها سلطة. والسلطة تكون قادرة على جلب المعرفة إلى جانبها.

-

فالإنسان عندما يتوصل إلى المعرفة يستطيع أن يتحول إلى نوع من السلطة في مجتمعه. ويصبح الآخرون يهابونه ويحترمونه أكثر. بل ويستطيع أن يستغل معرفته أو شهرته لأغراض مادية إذا ما أراد. والإنسان الذي يمتلك السلطة يستطيع أن يجذب إليه كبار العلماء وان يستغل معرفتهم في ترسيخ سلطته إذا ما أراد.

-

وبالتالي فهناك علاقة ديالكتيكية واضحة بين السلطة والمعرفة. وهما ليستا منفصلتين عن بعضهما البعض كما نتوهم عادة. فنحن نعتقد ان السطة جاهلة أو عمياء لمجرد انها سلطة، وان المعرفة عزلاء لا هدف لها إلا الحقيقة ولا سلطة لها.. وهذا خطأ ينبغي تصحيحه.

-

ثم تتحدث المؤلفة عن عودة فوكو الى كانط وتقول: في أواخر حياته تحول فوكو من نيتشوي الى كانطي دون ان ينكر اعجابه بنيتشه. وبالتالي فليس صحيحا القول بأنه كان ضد التنوير كما يزعم بعضهم.

-

على العكس، فان فوكو لم يتنكر للتنوير أبدا على الرغم من نقده الجارح للحداثة الاوروبية ومؤسساتها.

-

ولكن الشيء الذي مات في فكر فوكو ولم يعد صالحا لعصرنا هو التالي: لم نعد نرى في مؤسسات الحداثة مجرد مؤسسات قمعية هدفها قمع الأفراد أو تدجينهم، وانما أصبحنا نرى فيها مؤسسات ايجابية تهدف الى حماية حقوق الانسان والمواطن، وحماية أمنه وسلامته. فلولا دولة القانون لساد قانون الذئاب في أوروبا ولأصبح الفرد يخشى على حياته من السجن التعسفي أو ملاحقة الاجهزة والمخابرات بدون سبب كما هو حاصل في دول العالم الثالث مثلا.

-

ولكننا نعلم ان هذا ممنوع في الغرب لسبب بسيط: هو ان الدولة محكومة بقوانين معينة لا تستطيع انتهاكها او الخروج عليها. وحتى رئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء لا يستطيع انتهاك القوانين السائدة أو ملاحقة شخص ما لأسباب شخصية وبدون سبب.

-

وبالتالي فالدولة الشرعية التي تحكم باسم القانون تحمي مواطنيها من البطش، أو العسف، أو الظلم غير المبرر. ولا ريب في ان فوكو بالغ في نقد مؤسسات الحداثة، وبالغ في رؤية الوجه السلبي لها. ولكنه أفادنا جدا من حيث التنبيه إلى سلبيات الحداثة وساعدنا بالتالي على تصحيحها وتجاوزها. وهذا ليس بالأمر القليل. فالمفكرون النقديون هم الذين يفيدون المجتمع أكثر من المفكرين الامتثاليين الذين يقولون نعم دائما.

-

وتختتم المؤلفة كلامها قائلة: لماذا كان فوكو يسحرنا أكثر من غيره من كبار المفكرين؟ لماذا كان يمارس علينا تأثيرا مغناطيسيا أكثر من التوسير، أو لاكان ، أو دريدا، أو ديلوز، أو غيرهم؟ لسبب بسيط: هو انه كان فنانا وكاتبا كبيرا ومحاضرا رائعا. ثم لانه كان عبقريا بكل بساطة. وكان يعرف أن نار العبقرية ـ أو الجنون ـ قد سكنته وانه مكلف باكتشاف بعض الحقائق الكبرى للبشرية.